الفصل الرابع

المبايعة

الخلافة

الإمام أو مصحف عثمان

النهاية

obeikandl.com

المبايعة

إذا لخصت سنة الصديق أو سنة الفاروق في تولية العهد بعدهما، كانت خلاصتها أنها إبراء للذمة أمام الله، درءًا للخلاف، وحرصًا على الوحدة الإسلامية.

ولابد من استحضار هذه الطريقة لمنع كل شبهة، وتأويل كل قصد، ودفع كل فرية، عند تعليل الطريقة التي اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية، واختلفا فيها ظاهرًا، ولا اختلاف بينهما باطنًا فيما قصدا إليه.

فلا تدبيرَ هناك ولا احتيال لغايةٍ يرميان إليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة. ومن ظن أن الصديق قد اختار عمر ليقصي عن الخلافة غيره، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليرجح الكفة في جانب واحد منهم على سواه، فهو ينكر عليهما الإسلام ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب، فإن أحدًا يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله إذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة، لن يحتال ولن يدبر لهواه وهو يعلم أنه يغضب الله بما يفعل، ولو كان لأحدهما هوى في أحد لاختار أبو بكر من بني تيم، واختار عمر من بني عدي أو بني الخطاب، وما كان ينبغي لهما الهوى وهما في سطوة الدنيا وجاه الولاية، فكيف ينبغي لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب لاشك فيه؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض المحدثين الذين أرادوا أن يعينوا بلغة الدساتير العصرية نظامًا لتولية العهد في سابقة الصديق أو سابقة الفاروق، وإنما هما نظام واحد يتبعه كلاهما في موضع

صاحبه، فما نحسب أن أبا بكر كان مسمِّـيًا أحدًا بعينه لو كان في موضع عمر، وما نحسب أن عمر كان محجمًا عن التسمية لو كان في موضع أبي بكر، وليس البحث عندهما: أي أولياء العهد أفضل وأحب إليهما، ولكنما البحث الذي يعينهما ويشغلهما: أيهم أحب إلى المسلمين وأقمن أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة، ولا يعقل أن أحدًا منهما كان يعلم في طويته أن ثمة وسيلة غير الوسيلة التي اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم يعدل عنها، ليأثم في حق ربه وحق دينه وحقِّ رسوله وحقِّ المسلمين كافَّة، تبرعًا منه بالإثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة.

حضرت الوفاة أبا بكر، فسأل نفرًا من نخبة الصحابة عمن يتولى أمور المسلمين بعده فذكروا عمر، وأشار بعضهم إلى شدته، فقال لهم إنه كان يشتدُّ لأنه يراني رفيقًا فإذا وكل إليه الأمر فلا خوف من شدته.

وروى محمد بن سعد أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر، فقال له قائلون منهم: "ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟". فقال أبو بكر: "أجلسوني". ثم جلس فقال: "أبالله تخوفونني؟" خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: إنني قد استخلفت عليهم خير أهلك.. أبلغوا عني ما قلت لكم مَنْ وراءكم".

ثمَّ اضطجع، وجاء عثمان بن عفان فجعل يملي عليه: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبو بكر في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر،

ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا، فإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيرًا، فإن عدل فذاك الظن به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ ولا علم لي بالغيب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وكان يملي وتدركه غشية، فلما قال: "استخلفت بعدي" ولم يذكر اسمًا أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب. ثم أفاق أبو بكر فسأله: ماذا كتبت؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها، فدعا له وبارك عليه، وقال له: "هكذا الظن بك، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلًا".

والقوم في معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التي يتلهى بها طلاب الظرف ورواد الأندية في زماننا هذا وقبل زماننا، فما كان عمر ليتنحى عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها، فإنه محاسب على إنكاره حقه كما يحاسب على إنكار حق غيره إذا اجتمعت له صفة الولاية دونه. فكان يتولى الخلافة وهو يقول: "لو علمت أن أحدًا أقوى على هذا الأمر مني، لكان أن أقدم فتضرب عنقي، أحب إلي من أن أليه".

ثمَّ حضرته الوفاة فلم يعهد في بادئ الأمر لأحدٍ، ونقل إليه حديث الناس إذ يقولون: "إنه غير مستخلفٍ، ولو كان له راعي إبل أو راعي غنم ثمَّ ترك رعيته كان قد فرط في أمانته. فماذا يقول لله عزّ وجل إذا لقيه ولم يستخلف على عباده؟" فأصابته كآبة ثم نكس رأسه طويلاً ثم رفعها وقال: "إن الله تعالى حافظ الدين، وأي ذلك أفعل فقد سن

لي؟ إن لم أستخلف فإن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكر".

وعاودوه في الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه: "من استخلف؟" وروى عمر بن ميمون الأودي أنه قال بعد ذلك: "لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا استخلفته وقلت لربي إن سألني: سمعت نبيك يقول: إن سالمًا شديد الحب لله تعالى فقال له المغيرة بن شعبه: أدلك عليه. عبد الله بن عمر". فنهره قائلا: "قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا. ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا في أموركم، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي. إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًا فقد صرف عنا. بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، فإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إني لسعيد..".

ثمَّ قال: "انظر، فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني، وإن ترك فقد ترك من هو خير مني، ولن يضيع الله دينه".

وراجع نفسه وروجع في الاستخلاف مرة بعد مرة فقال: "ما أردت أن أتحملها حيًّا وميتًا. عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة، وهم عليٌّ وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير وطلحة. فليختاورا منهم رجلا، فإذا ولوا منهم واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه".

ثم دعا بهم فحضروا إلا طلحة كان غائبًا، فقال لهم: "إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وهو عنكم راضٍ. وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس".

ووضع رأسه وقد نزفه الدم، فتناجوا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم وقال عبد الله ابن عمر: "سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد!" فسمعه فانتبه، وقال: "أعرضوا عن هذا، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكن أمير منكم. ويحضر عبد الله بن عمر مشيرًا ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة فامضوا".

والتفت سائلاً: "ومن لي بطلحة!" قال سعد بن أبي وقاص: "أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى".

وقال لأبي طلحة الأنصاري: "يا أبا طلحة، إن الله طالما أعزّ بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا منهم"، وقال لصهيب: "صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتا وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بحكم

عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس".

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته في قضية الاستخلاف.

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل في تفصيلات هذه القضية التي واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة في حياته، وهو يفارق تلك الحياة: يقبلها على جميع الوجوه، ويفرض لها جميع النتائج، ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغي أن يفتح ويغلق منها ما ينبغي أن يغلق، ويلاقي من جانب ما يخشاه من جانب، ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال، من إحسان أو إساءة، ومن وفاق أو شقاق، ويفعل ذلك في غمرات الموت بين صراعات الألم من جراحه القاتلة، ويعالج به أمرًا لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره، وكأنما هو من خبراء الاختصاص في دساتير الحكم، درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه إلى تقريرها وتدوين وقائعها ومواقعها، وجلس ليوازن ويقابل، ويطابق ويوافق، ومن حوله الأعوان يلبون ما يطلب، ويستدركون ما يفوت، وينتهون في سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة ما قرروه.

ولو كان تفكيره لعذر يتكلَّم به أو لحجَّةٍ يسكن إليها لقد كان حسبه أن يبرئ ذمته بالطمأنينة إلى أن الدين في حراسة الله، أو كان حسبه أن يبرئ ذمَّته بما جرى عليه الأمر في عهد رسول الله، ولكنه لا يلتمس عذرًا يقال وحسب، أو حجة تقنع وكفى، بل يسأل نفسه

ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد، وتباين الأعذار من حال إلى حال، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه إلا أوردها لنفسه، كأنما هو حامل الميزان.

فمن سأل عن معجزات العقائد في كواكب السماء أو أطواد الأرض فهذه معجزة المعجزات التي تأتي بها العقيدة في نفس الإنسان: تخرجه من جوف الصحراء كفؤًا لأعضل المعضلات بخلقه، وكفؤًا لها بعقله، وكفؤًا لها بعمله، ونمطًا من الشعور بالتبعات لا يجاري، ونمطًا من القدرة على النهوض بها، يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه، وقبل أن يعرفوه.

ومن آيات بعد النظر في سبر أغوار الرجال أنه جعل للترجيح بين أصحا الشورى رجلين: هما عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن عوف، فأما عبد الله بن عمر فهو الذي نحاه عن المشاركة في الخلافة وأعده للترجيح بين المختلفين وليس له من الأمر شيء، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه، فكان بحق أصلح المتشاورين لترجيح إحدى الكفتين.

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصاري على رأس خمسين ممن يختارهم لقمع الفتنة في مهدها إذا اختلف المتشاورون، فكان أبو طلحة عند ظنه حزمًا وتقية. قال للقوم وقد تنازعوا الرأي: "لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تتنافسونها" ثم أقسم لا يهملنهم لحظة بعد الأيام الثلاثة، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين.

ومن آيات بعد النظر في الاختيار أن اختار صهيبًا للصلاة بالناس، فهو الإمام الذي لا تخشى له دعوة من تقديمه للصلاة، ولا يأبى الناس أن يأتموا به وقد أمهم قبل ذلك.

ومن آيات بعد النظر في الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو غائب عن المدينة، أو ما كان في الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية؟ أو ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين؟ جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان، وعند التاريخ في بداية عهد عليّ، وعند عمر قبل ذلك باثنتي عشرة سنة.

وآية الآيات دستوره في اختيار الستَّة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين، أتراه اختارهم جزافًا كما شاء؟ ذلك دستور لا يلزم الناس جميعًا، ولا حجة له عليهم فيه إذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين؟

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائبًا عن قبيلة منها، أو متكلمًا باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها؟ تلك هي العصبية يحييها في أسوأ أوان لإحيائها، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة، ولا تراد العصبيات الجاهلية، أو لا يراد الاعتراف بها إذا تيقظت على غير إرادة.

أتراه اختارهم من البدريين وذوي السوابق في الجهاد؟ لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل، لو جمعهم كلهم لكثروا، ولو فاضل بينهم لما وضحت أسباب المفاضلة، ومنهم من هو ذو فضل

وليس بذي رئاسة تتبع، ومنهم من ذوي الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختلّ ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار.

فلابدَّ من اختيار، ولابد من دستور يثاب إليه في الاختيار، وكان الدستور الذي ثاب إليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غاية في الروية والدقة في الموازنة بين جميع الوجوه:

كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم في خطبة النبي عليه السلام بعد حجة الوداع، وهم الذين يتفق الناس على الاختيار منهم، أصحاب الشورى وأن تكون لهم حجتهم عليه.

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح إلى استخلافه بعد أبي بكر، وكلاهما من عشيرة واحدة وهي قبيلة تيم، فقال له أبو بكر: "أما والله لو وليتك لجعلت أنفسك في قفاك، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها".

وما كانت تخفى على عمر فضيلة في واحد من الستة ولا نقيصة، وما كان يغمط لهم فضلاً ولا يغضي على نقص، وأولهم عبد الرحمن بن عوف الذي أقامه بينهم مقام الحكم الذي يرجح بين العدلين، فقال له إن إيمانه يرجح بنصف إيمان الأمة، وقال عنه لابن عمر: نعم المرء، ذكرت رجلاً صالحًا إلا أنه ضعيف، وهذا الأمر لا يصلح له إلا الشديد من غير عنف، اللين من غير ضعف، الجواد من غير سرف، الممسك من غير بخل.

ورأيه في الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب، وقد صارحه برأيه فيه فقال له: "لعلها لو أفضت إليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير".

ورأيه في سعد أنه أهلٌ لها. فإن تولوه فهو أهل، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن ضعف ول خيانة، وكان يقول: "إذا روى سعد حديثًا فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته".

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها "إلا أحد هذين الرجلين: عليّ وعثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحرى به أن يحملهم على الحق".

وقال لعثمان: "كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني معيط على رقاب الناي وآثرتهم بالفيء" وقال لعلي مثل ذلك عن بني هاشم ولم يذكر الفيء، وإذا صح ما جاء في إحدى الروايات أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى: "فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحًا" فإنه لمن نبوءاته التي جعلته من المحدثين، أي من الذين يتحدث إليهم بلسان الغيب كما قال عنه النبي عليه السلام.

ولا خوف عليهم من الناس إذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم للخلافة، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على إسناد الخلافة إلى أحدهم. فإن اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تنجم، والقضاء على

المخالفة قبل أن يبرح مجلس الشورى. فإن لجّ الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه.

وقد روى الثقات حديث النبي عليه السلام حين عاد من حجة الوداع قبيل وفاته فقال: "أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا له ذلك، يا أيها الناس إني راض عن عمر وعليّ وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك".

فحسب عمر أن يرتضي للمشاورة في أمر الخلافة من رضي النبي عليه السلام عنهم قبيل وفاته، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضي عنهم هم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم، فلا يسمون خليفة إلا كان واحدًا من هؤلاء، ولا يحاول أحد في ذلك العصر أو في عصرنا هذا أن يزيد عليهم علمًا من أعلام الإسلام يومئذ إلا اعترضه مانع، أو كان مستنده إلى سبب غير جامع. فقد كان العباس ابن عبد المطلب حيًا في ذلك الحين فلم يدخل في أصحاب الشورى، وقال ابن جرير الطبري في تعليل ذلك: "إنه-أي عمر-إنما جعلها في أهل السبق من البدريين والعباس لم يكن مهاجرًا ولا سابقًا ولا بدريًا..".

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر في خطبة الوداع، ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود علي، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة علي، ثم أشار عليه ألا يدخل في جماعة الشورى، فليس في استثنائه تعسف من عمر، وإنما التعسف أن يختاره لسبب ولا يختار معه كل من يشاركونه في

هذا السبب، وذلك هو الاستثناء الذي لا يغني شيئًا ولا يطاع بسند شامل براء من التحكم والجزاف.

ولقد علمنا فيما علمناه وألمنا به آنفًا من آراء المعقبين على خطة الصديق وخطة الفارقو، أن بعضهم ودّ لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه في اختيار خلفه، وأنهم عابوا عليه أن يكل إلى الستة أن يتشاوروا في انتخاب واحد منهم. لأنهم تولوا هذه المهمة، فداخل كلا منهم الأمل في الخلافة والإيمان بصلاحه لولايتها، فانفتح بينهم التنافس وتطرقت إليهم نوازع الشقاق في هذا الباب.

ومعاوية بن أبي سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأي، وهو نفسه حجة على نقيضه، لأنه قد اشرأب إلى الخلافة وتصدى للمبايعة بها، وليس هو من الستة، ولا من كان يطمع في إسنادها إليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعده لخليفة يسميه باسمه، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد وبويع عليها طوعًا أو كرهًا. فلم يحسم بذلك خلافًا بين المسلمين عامة ولا بين بني أمية أو أبناء بيت أبي سفيان.

وما نحسب أن عمر كان يؤمن بترجيح واحد من الستة على الآخرين، وإجماع المسلمين على مثل رأيه فيه، وأنه قادر على رد المخالفين له إلى الإجماع، إن كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة. وليس البحث في هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس والفروسية، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيلهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة، وإنما البحث فيمن يجمع الناس إلى

حكمه وفضله، وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه، ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر، ولم يبال إن كان يحكم برأيه في ولاية العهد على يقين.

ولا ريب انه حصر المرشحين بعده للخلافة فأحسن حصرهم ولم يدع واحدًا منهم خارجًا من زمرتهم، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها، فإن صارت إلى واحد منهم باتفاقهم كان هذا ألزم لهم وأوجب لتحرجهم من الخروج على ولي الأمر باختيارهم، وكان أوجب لتحرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التي أملاها ورتب لها نتائجها.

كان ولي الأمر في ذلك المجتمع الوليد كفؤًا لأمانة الخلافة إلى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة، فأوصى وصيته المحكمة التي نظر نظرته الشاملة ولم يدع فيها بقية لنظرة تالية، ولكن الوصايا مهما يبلغ من إحكامها وإلزامها لا تنفذ بغير منفذين يقدرون على تنفيذها ويصدقون النية فيه، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وإمام الصلاة في الأيام الثلاثة أهلاً لأمانتهم، لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئًا في تلك المهمة المعجلة، التي يوشك أن يفسدها كل خطأ في القيام عليها وكل تأخير عن موعدها. وقد أدى الخليفة واجبه، وبقى واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم، وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم في تلك المهمة المحرجة، وفي زمرتهم قبل غيرها محرجاتها، بل أعضل محرجاتها.

تنافسوا بينهم ولا جرم، أقل من منصب الخلافة في الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون، ومن المروءة أن يستشرف المرء إلى مقام الفاضل، ويأبى لدينه ودنياه مقام المفضول، فإن لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون به عن مظنة التخلف والقصور.

ثمَّ ألهم أحدهم أول حلٍّ للمشكل تتبعه لا محالة سائر الحلول: واحد ينزع نفسه منها باختياره، وينوب عن سائرهم في التوفيق بين المختلفين.

سبقهم إلى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف، ولم يسبقهم إليه نزولاً بقدره عن أقدارهم، بل نزولاً به عن قدر الصديق والفاروق، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين مطمع بعيد، ولم يشأ أن ينزل بنفسه منزلاً لا يرتضى له ولا يرتضيه.

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادئ ذي بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه، فإن كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره، فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف، وإن لم يكن، فينظر بعد ذلك فيما يلي خطوته الأولى من خطوات.

قال: "أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟" فلم يجبه أحد. فقال: "فأنا أنخلع منها"، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فلم يخطئها، ووصل منها إلى حصر الخلافة في واحد من اثنين: علي وعثمان.

لقي كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه، قال لعلي: "تقول يا أبا الحسن إني أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر

عنك فلم تحضر، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به؟" قال: "عثمان".

ولقي عثمان فقال: "إنك تقول: شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمه، ولي سابقة وفضل، فأين يصرف هذا الأمر عني؟ لكن لو لم تحضر، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق؟" فقال: "علي"!

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد، ولكن الراجح منها أنهما ذكرا عثمان بشرط ولم يقطعا برأي في إيثار علي عليه.

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعليٍّ، خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليًا، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلي، وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس، وأنهم لا يجنحون إلى العظمة النابغة جنوحهم إلى الطيبة والسلامة، ولا ينفسون على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول.

كلُّ أولئك وأبو طلحة الأنصاري رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم "بالذي ذهب بنفس عمر" لا يزيدنهم على الأيام الثلاثة، ثم يجلس في بيته فينظر ماذا يصنعون، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصرّ على الخلاف.

ولئن كان عمر موفقًا في اختيار كل لعمله، لقد كان اختياره لأبي طلحة أوفق ما في هذا التوفيق. إنه الرجل الذي آخى النبي عليه السلام بينه وبين أبي عبيدة ابن الجراح أولى الناس في رأي عمر بالخلافة لو عاش، وهو البطل الذي ثبت في واقعة أحد، يوم انهزم أشجع

الشجعان، ولزم النبي في ذلك اليوم المشهود، يقف بينه وبين السهام والسيوف، ويتطاول بصدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة في مقتلها إذا أصابوه، وشهد أبو طلحة وقعة حنين، فبارز عشرين خصمًا وصرعهم، وصاح صيحته التي كان عليه السلام يقول: "إنها في الجيش خير من مائة رجل". ولم يكن يبالي الموت وهو في سعة من دنياه، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول.

وقد أوفى بأمانته في أيام الشورى، فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم في صبيحة اليوم الثالث، وكان فيه فصل الخطاب.

في تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن مخرمة فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدًا، ثم بدأ بالزبير فقال له: "خل بني عبد مناف وهذا الأمر" قال الزبير "نصيبي لعليّ" ثم قال لسعد: "اجعل نصيبك لي فنحن كلالة"-أي أبناء عم من بعيد-وكلاهما من بني زهرة. فقال سعد: "إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت عثمان لعليّ أحبّ إليّ" ثم قال: "أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا" فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها، وأعاد عليه مقالته: أنه لا يقوم مقام أبي بكر وعمر أحدٌ بعدهما ويرضى الناسُ عنه.

ثمَّ كان علي وعثمان آخر من دعاهم في تلك الليلة: دعا عليّا فناجاه طويلاً، ثم دعا عثمان فناجاه إلى صلاة الصبح، ويظن أنه سأل كلاً منهم عما ينويه إذا ولي الخلافة، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا في ولايتهم عامًا بعد وفاته، ثم يصنع الخليفة ما بدا له من إقرار أو عزل، على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم، وأنه سأل كلاً منهما عن

سياسته عامة وخاصة في شئون الأفياء والأرزاق والأجناد والسرايا والمغازي وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من علي وعثمان على حدة، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئًا من هذا إنما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلاً عن عبد الرحمن أو عن علي وعثمان.. قال عبد الله بن عمر: من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن ابن عوف عليًا وعثمان فقد قال بغير علم.

وحانت صلاة الصبح فصلوا في المسجد، وجمع عبد الرحمن رهط الشورى، وبعث إلى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله، وقام عبد الرحمن فقال: "أيها الناس! إن أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من أميرهم" فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوي السابقة الأولى في الجهاد: "إنا نراك أهلا لها". فقال عبد الرحمن: "أشيروا عليّ بغير هذا". قال عمار بن ياسر: "إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليًا" وقال المقداد بن الأسود: "صدق عمار. إن بايعت عليّا قلنا: سمعنا وأطعنا". وإذا بعبد الله بن أبي سرح يناديه: "بل تبايع عثمان فلا تختلف قريش" ويثني عبد الله بن أبي ربيعة فيقول: "صدق. إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا" فتنابز عمار وابن أبي سرح، واختلط القول بين بني هاشم وبني أمية، فعاد عمار يقول: "أيها الناس! إن الله عزّ وجل أكرمنا بنبيه، وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟" وبادره رجل من آل مخزوم شاتمًا: "لقد عدوت طورك يا ابن سمية! وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟".

وضاق سعد بن أبي وقاص صدرًا بهذه المنابزة وهذا الصخب فصاح بعبد الرحمن: "يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يفتتن الناس".

ولا ندري هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهل قبل إعلان البيعة أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنابزة. فالغالب من تصرفه في أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها ما بعدها بحسب وأناة، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ محادثة الاثنين اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث إليه، وأن لما دعاهما دعا عليا ثم ثنى بعثمان.

فإن كان قد تمهل في المسجد على عمد فقد أحسن الروية، لأنه سكت حتى أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكشر عن نابها إن لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة! هذا يذكر اتفاق قريش، وهذا يشترط، وهذا يقابل شرطه بمثله، وهذا يتكلم عن بني هاشم، وهذا يتكلم عن بني أمية. فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن: أفرغ يا عبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس، كان صوته في تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد.

وأسرع عبد الرحمن فقال: "إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً" ودعا عليًا وقال: "عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده" فقال: "أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي مع اجتهاد رأيي" ودعا عثمان فقال له كذلك: "عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده" فقال: "أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ

علمي مع اجتهاد رأيي" ودعا عثمان فقال له كذلك: "عليك عهد الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده". فقال: "نعم".

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان فقال "اللهم اسمع واشهد. إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان" ثم بايعه بالخلافة، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وجاء في بعض أخبار ذلك اليوم أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي صلوات الله عليه، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه، وأبطأ عليّ فقال عبد الرحمن: "ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا" فرجع عليّ يشق الناس حتى بايع وهو يقول: "فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون".

وقد بايع رهط الشورى عثمان في المسجد ما عدا طلحة، فإنه كان غائبًا فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل: "أكل قريش راض به؟" ثم قال له عثمان حين ذهب إليه: "أنت على رأس أمرك.. إن أبيت رددتها" قال طلحة: "أتردها؟" قال: "نعم" فسأله: "أكل الناس بايعوك؟" قال: "نعم" قال: "قد رضيت، لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه".

ولا نلتفت هنا إلى زوائد الأقاويل عما خدع عليًا وعمن خدعه. فإن ما أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين.

ولكنا نلم بطرف من تلك الأقاويل حيث يزعم بعض الرواة أن عليًا بايع وهو يقول جهرة: "خدعة وأي خدعة!". وأنه يعني بذلك أن عمرو بن العاص خدعه فانخدع، وأن ابن العاص لقيه في ليالي الشورى فألقى في روعة أن "عبد الرحمن ابن عوف رجل مجتهد، وأنك إن أعطيته شرطه زهد فيك.. ولكن تقبل على الجهد والطاقة". ويزعم أصحاب هذه القصة أيضًا أن ابن العاص لقي عثمان فقال له: "إن عبد الرحمن رجل مجتهد، وليس والله يبايعك إلا بالعزيمة" أي وفاقًا لشرطه، فاقبل منه عزيمته يبايعك عليها.

فهذه القصة وما هو من قبيلها ضرب من ضروب المخترعات المألوفة ممن يحبون أن يردوا كل شيء إلى دهاء الدهاة وخديعة المخدوعين، فما كان عليّ بالذي يعتقد أن عمرو بن العاص يتآمر معه على عبد الرحمن وعثمان، وما كان عثمان بالذي يتلقى سر عبد الرحمن من عمرو بن العاص، وما تخطر هذه الخواطر إلا على بال الذين يتعشقون بطولة الدهاء فيضعون عمرو بن العاص بحيث يعرف سر عبد الرحمن ويعرف الشرط الذي سيعرض به الخلافة على عليّ وعثمان، ويجعل هذا يقول "نعم" ويجعل ذاك يقول "لا" كما يشاء.

والأشبه والأمثل بهم جميعًا أن يكون عبد الرحمن بن عوف وغيره يشترطون ذلك الشرط بعينه على من يقبل أمانة الخلافة في تلك الآونة، وأن عليًا وعثمان يقولان ما قالاه في جوابه، ولا حاجة إلى دهاء ولا إيحاء من النصحاء والوسطاء.

إن حكم الحال أصدق من حكم المقال في جميع الأخبار، وهو كذلك على التخصيص في أخبار هذه المبايعة، إن لم يكن في رواية الأقوال والحوادث، ففي رواية الشعور الذي كان يخامر الصدور ويتجمع فيها منذ زمن بعيد: شعور بحال لا تدوم، وخوف من تغيير وتبديل، واجتهاد في منع التغيير والتبديل، أو في اجتناب الضرر منهما جهد المستطاع.

ومن الأحاديث التي رويت عن النبي صلوات الله عليه أن الخلافة ثلاثون سنة ثم هي بعد ذلك ملك غضوض.

ومن كلام أبي بكر في معارض شتى أن الدنيا موشكة أن تغير من النفوس ما لا يحمد تغيره، ومن كلام عمر وعمله في أيامه جميعًا ما ينم على حذر كهذا أو أشد من خطر الدنيا على نفوس الأقطاب الكبار، فضلاً عن الدهماء وسواد الدنيا.

وكانت لهذا الشعور أحيانٌ يشتد فيها ويغلب على الناس عامة حتى كأنه بديهة حاضرة لا تحتاج إلى تفكير، ومن هذه الأحيان فترات التوجس والترقب بين عهد وعهد منذ أيام النبي عليه السلام: بين وفاة النبي وقيام أبي بكر، وبين وفاة أبي بكر وقيام عمر، وبين وفاة عمر خاصة وقيام عثمان.

ولما حدثت فتنة الردة في أوائل عهد أبي بكر دهش الناس ولم يدهشوا: دهشوا لأنهم فوجئوا، ولم يدهشوا لأنهم-وقد وقع الذي وقع-لم يستغربوه، ولم يستكثروا حدوثه بعد صدمة كتلك الصدمة الهائلة، وبعد غياب صاحب الدعوة ومتعهدها، وصاحب المنزلة التي

لا تدانيها فيهم منزلة. ثم أصبح التوجس والترقب ديدنا لهم في كل فترة من قبيلها، فتساءلوا بعد موت أبي بكر ماذا عسى أن يكون بعد ذهاب هذا الخليفة الرفيق الرقيق. لعله تساؤل لم يعنتهم كثيرًا ولم يطل بهم أجله غير قليل. إذ كان أبو بكر لا يبرم أمرًا بغير مشورة عمر، وكانت سياسة الشيخين واحدة تلين معها تارة وتشتد تارة أخرى. فلما أشفق الناس بعد وفاة أبي بكر لم يشفقوا من تبديل سنة مرعية أو خروج على جادة متبعة، ولكنهم أشفقوا من شدة فيها وصرامة في جمل الناس عليها، ثم ذهب عمر بغتة والناس يستعظمون الخطوب، ويلمسون بوادر التغير ومن قريب، فعادوا إلى ديدنهم في أمثال هذه الفترة، وخيل إليهم أن كل أمر جائز وكل خطر متوقع خلال هذه النقلة، مما علموه إلى ما يجهلونه، ويوجسون منه ويترقبونه.

وفي كل كلمة بدرت، وكل وصاة قيلت في هذه الفترة، إعراب مقصود أو غير مقصود عن هذا الشعور الغالب الذي بلغ أقصاه يومذاك: شعور بحالة يخشى ألا تدوم، وخوف لا يدرى كيف يتقى.

عمر يوصى ببقاء الولاة عامًا ويتوقع الفواجع من الأثرة والإيثار، ويريد "من يحمل الأمة على الحق" ومن يشتد في غير عنف، ويلين في غير ضعف، وعبد الرحمن يعلم أنه لا رضى عن أحد بعد الصديق والفاروق، ولا طمأنينة للناس إلا أن يطمئنوا إلى سيرة كالسيرة الأولى، وهم لا يعلمون من أين يأتي التبدل والانحراف.

إن تقرير هذه الحالة النفسية أهم من إحصاء مئات الحوادث والأقوال التي انحدرت إلينا من تلك الفترة، لأن الحوادث والأقوال لا

تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية، ولعل تلك الحالة في كثير من الأحيان هي مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها، فما كان أحد يعيب سياسة عثمان مخلصًا أو غير مخلص، إلا كان الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له يسوقها في خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته، وأصبح حضور هذا الحذر في الأذهان من دواعي المبالغة في تعظيم المخالفات وخلقها من غير شيء، على نية حسنة عند بعضهم، وعلى نية سيئة عند الأكثرين، لأنها كانت نغمة العصر التي تفتح الآذان، وتتأهب الآذان لاستماعها في كل مكان.

وأهم من تلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية، وجثمت في سريرته، حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة، فكان يقول لمحدثيه كما يقول في خطبه: إن ما تبتلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع، وإن فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذي لا تجدي فيه الحيلة أو المحاولة. وذلك كله مما نلمسه في استسلامه آخر أيامه وتركه المحاولة أو عدوله عنها بعد المضي فيها، ونلمسه كذلك في شكه واسترابته في صدق العاملين، وتعويله من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه، عسى أن يصدقوه في رعايته السنن والمواثيق.

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبة الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة، فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة حتى أتى منبر رسول الله وقام يخطب الناس فأرتج عليه، وجاء في كلام من روى خبر الإرتاج عليه أن قال يومئذ: "أيها الناس. إن أول مركب

صعبٌ، وإن بعد اليوم أيامًا، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء، وسيعلمنا الله...".

مقام أدل من المقال، يدل على كثير.

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ، ولكنها قد جاءته وهو لا يستبعد أن تفوته، ولا يزال يخشى في ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير، وأن يطوي في سره منها ما لم يكن له أن يبديه في العلانية.

ثمَّ خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبة الأولى، وكان مدارها على فتنة الدنيا والوعد بإتباع السنن واجتناب البدع، وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه، ولا تخاف خطرًا أكبر من خطره.

قال في خطبته الأولى: إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. أعبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروا وعمروها ومتعوا بها طويلاً. ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها".

وقال في أوائل خطبه: "...إني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع. ألا وإن لكم علي بعد متاب الله عزّ وجل وسنة نبيه- صلى الله عليه وسلم-ثلاثا: إتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم فيما

أستوجبتم، ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها".

إن أقرب الأخبار إلى الصدق ما تهم بان تنفيه فيحمي صدقه بآية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع، وكل ما كان خليقًا أن يحدث عند مبايعته الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذي يطابق الواقع والمتوقع، وفي هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود، وفيها زيادة وعد "بالكف عن الناس إلا فيما استوجبوه" ولعلها الزيادة التي أتت في أوانها بعدما تململ منه القوم من صلابة عمر ومنعه إياهم أن ينساحوا في الدنيا، وخوفًا منهم عليها.

أما المكائد التي أبدعتها أوهام المتوهمين، فقد يبطلها قبل كل شيء أنها ليست بمكائد تعمل عملا ينفع من يكيدها.

ومن هذه المكائد ما يخيل إلينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوها "قصة مسرحية"، يعطون كل بطل من أبطالها دوره في الكلام، ودوره في الدخول والانصراف، ومنها ما يخيل إلينا أن أصحاب الشورى كانوا عصبة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء ذاك، وإحدى هذه الخيالات خيالة المشترقين الذي توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلف إلى منيته، فكلهم يطمع فيها بعد موته أفحدث حقًا أنهم خصوه وعرفوا يقينا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجتباه؟

وفي مكيدة أخرى من هذه المكائد التي "يمسرحها" المخترعون لها ان اختيار عثمان قرر الملك لبني أمية على نية مبيتة، فهل هي مسرحية يكتبها التاريخ نسخة بعد نسخة، ويريد هنا غير ما يريده هناك؟ ولماذا تطمع القبائل أن تتداول الخلافة بعد خليفة من بني أمية وهم أقدر على احتجانها، وأرغب في الاستئثار بها بعد مآلها إليهم في صدر الإسلام؟".

كل هاتيك حيلٌ مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف، وأولاها بالشك فيه ما لاح عليه التوفيق بين الأدوار والأعمال، وأولاها بالقبول ما ليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير في المسرحيات: شيء يراد وشيء لا يراد، ويعالجه فيستطيعه تارة، ويعيا به تارة أخرى فينقلب على غير ما تعمده وانتحاه.

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة إلى عثمان.

openkandl.com

الخلافـــة

بين هذه النذر قامت أصعب خلافة تولاها خليفة قط في صدر الإسلام، وقد كانت ثورة المرتدين في أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعًا متساندين متآزرين، فابتلى عثمان في أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه: الخلاف في الداخل والتغير في الدواعي النفسية، وهو أخطر المصاعب جميعًا في خلافة عثمان.

كانت هيبة عمر تملأ الجزيرة العربية وما حولها، وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته في الجزيرة، لأن هذه الرعية تعتصم من هيبته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبته إلا بالحذر والدسيسة، ورستم بطل الفرس المشهور الذي كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القائل عن عمر: "أحرق كبدي عمر. أنه يكلم الكلاب فتفهم عنه!". يعني أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم الفرس أبطالاً كالأسود، بفضل ما يسدي إليهم ويستمعون إليه من نصيحته والاقتداء بسيرته. وقد خطر للمؤرخين في صدر الإسلام أن الهرمزان كان من المتآمرين مع أبي لؤلؤة على قتل عمر، وهو خاطر قريب إلى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التي شهد بها يومئذ شهود الفاجعة قبل وقوعها، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدًا من ظواهرها التي تحصرها في أبي لؤلؤة والهرمزان، وان تدبيرها في معسكرات فارس وبلاط يزدجرد وحاشيته أقرب إلى الخاطر، وأدنى إلى المنظور في مجمل الأحوال.

فما هو إلا أن ذاع في ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر، حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد، وتمرد من قبائل الفرس والترك والروم من كان قد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة، ونقضت دولة الروم صلحها، فأغارت على الإسكندرية برًا وبحرًا، وأرسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين، وأطلقت في الميادين خفية من يبث فيها الوعد والوعيد، ويغري المطيع بالعصيان، وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التي اشتركت في حركات الثورة والانتفاض، فقال بعضهم إنها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل، وسرعان ما تسايرت الأنباء بهذه الزحوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب الأسيوية، فهبوا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح، أو ينقضونه بغير ذريعة، وينتهزون الفرصة التي علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا للطاعة والمسالمة.

لقد كانت محنة كمنحة الردة أو أكبر منها في اتساع ميادينها وتباعد أطرافها. وكان عثمان كفؤًا لها بالعزم والرأي والسرعة في تصريف الأمور وتسيير النجدات، وإسناد كل عمل إلى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد.

ولقد درج العاذرون واللائمون في تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لا تفارقه في جميع أعماله، أو كأنه حالة لم تفارقه قط في عمل مما تولاه.

فالذين آمنوا منه بحسن القصد، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم إلى ألسنتهم حيث يوفقون بين خطئه وحسن قصده، والذين أفرطوا في اللوم، جعلوا من ذلك الضعف خطلاً في الرأي قد يغطي على حسن النية لو افترضوه وسلموه. وهؤلاء وهؤلاء يستغربون أن يقال أنه كان كفؤًا لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه، ويخيل إليهم أن كلمة "الضعف" تلغي كل قوة وتبطل كل عزيمة، أو ينسون أن الضعفاء لا يتساوون، وأن الضعف لا يلازمهم في كل ما يعملون، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة الأبدان ومناعة النفوس، فقد يعدي القوي الركين وإلى جانبه النحيل الهزيل لا تسري إليه عداوة، وقد يكون القوي في حالات، أضعف من الضعيف في حالات، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات وهو قول لا يقل على إطلاقه، إذ لا نرى من علامات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة إلى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعيا به الضعفاء.

فلا تنس أن عثمان قد ولي أعمالاً ناجحة في الجاهلية والإسلام، وأن من هذه الأعمال قوافل تترحل في الصيف والشتاء، وتوافق مطالب اليمن في الجنوب والشام في الشمال، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويوائم تلك المطالب وهو مقيم في مكة أو المدينة، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره في مثل عمله، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه، وأنه بعد الإسلام قد لازم ولاة الأمر في السياسة والحرب من

عهد النبي عليه السلام إلى عهد الفاروق، وشاركهم في كثير، وسمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم في كثير.

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة في الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره، وليكن للضعف محله، فلا يشغل كل محل في معارض هذا التاريخ العجاب.

إن علاج عثمان لمشكلات الدولة "الخارجية" التي فاجأته بعد ولايته قد كان كأحسن علاج يتولاه خليفة في تلك الآونة: عزمٌ وسداد وسرعة، مع الخيطة والأناة والرفق في سياسة الأولياء والخصوم.

ولاشك أن الخليفة كان معانًا على عمله، ولم يكن منفردًا بعبئه في تلك المحنة الجائحة: كان معانًا عليه بحمية الجند وكفاية القادة، وكانت حمية الدين التي حفزت دعاة الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة، وصحبتهم من بدر إلى القادسية وتبوك وبابليون، صامدة على سمعتها كأقوى وأقوم ما كانت في يوم من أيامها، بل لعلها في حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها في الجزيرة العربية، إذ كانت أنفة العربي أن ينهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث في قلبه الغضبة القوية التي لا تثيرها حرب العربي للعربي والشبيه بالشبيه.

كان حبيب بن مسلمة الفهري يقاتل الروم في ميادين سورية وفلسطين، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل إليه، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون

القتال مع قلة الجند في معسكر العرب أتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيتهم بليل فانتصر وانهزموا.

وإن الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوها دهشة أخرى من دهشاتها التي لا عداد لها في كل وقعة من وقعاتها: كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو ينوي الهجمة بليل قبل أن يسفر نور الصبح ويأتي المدد المرتقب، فسألته: أين الموعد؟ قال: سرادق "الموريان" أو الجنة فوجدها عند السرادق قد سبقته إليه.

وقبل هذا أعين الصديق والفاروق بحمية الأجناد وكفاية القواد، ولكن أعباء الجهاد في أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه الناجز والتصريف الذي لا يغني الإجمال فيه عن التفصيل، على حسب الأطوار المتجددة والطوارئ المتقلبة، لامتداد خطوط القتال، وتعدد الفتن، وتباعد المسافات بين البلدان، وتكاثر العناصر والأجناس في جيوش المسلمين، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها في تلك المحنة الجائحة، وكان له ولاشك أكبر الفضل في تثبيت مهابة الدولة الجدية بعدما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر، فوقر في أخلاد الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قومًا لا يقدح في قوتهم موت خليفة أو تبديل قائد، وأنهم منتصرون مستميتون في سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء فقتل بعد هذه التجربة عثمان، ثم قتل عليّ، ثم مات معاوية، ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثاني عن الملك، وانقسم المسلمون على أنفسهم، ولم تقم للثورة عليهم قائمة في بلاد الروم أو بلاد الفرس، إلا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة،

يعروا الدول في داخلها ومن خارجها بلا انقطاع، ولا يخاف منه على دعائمها وأركانها.

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفي فيها التسكين، أو قمعها حيث تحتاج إلى القمع في بلاد الطغاة والمتجبرين، فصالح من صالح، وحارب من حارب، ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التي نشبت فيها الثروات إلى ما وراءها، منعًا لارتداد الهاربين إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها، فتقدمت جنوده شرقًا إلى الهند والصين، وشمالاً إلى ما وراء بحر الخزر، وغربًا إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس، وجنوبًا إلى السودان وجوانب الحبشة، ولم يؤخذ عليه قط وناءٌ في إنفاذ نجدة، أو تسيير مدد، أو تدارك خطر في أوانه، من أقصى تلك البقاع إلى أقصاها.

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التي استطاع الفاروق إرجاءها، ولم يكن ثمة بد من عودتها في أوانها.

عرضت له غزوة قبرس ورودس وجزر بحر الروم، وإعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطئ مصر والشام والقيروان، فكانت بحق مسألة، بل مشكلة من المشكلات التي لم تستحكم قبل أيامه، ولم تتطلب الحل السريع من ولي لأمر المسلمين في الجزيرة العربية، أو في البقاع التي انتهت إليها الفتوح.

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرًا ولا جسرًا ولا قنطرة، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع، وكان معاوية يلح عليه في غزو الروم بحرًا، ويهون عليه خطب هذه الغزوات،

ولا يفتأ يخضه على ذلك، ويقول فيما قال حضًا عليه: "إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم" يعني جزيرة أرباد.

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له: "إن نفسي تنازعني إليه".

فكتب إليه: "إني رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه دودٌ على عود، إن مال غرق وإن نجا برق.." إلى آخر ما هول به عليه، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلمًا أبدًا، ورضي من ملك الروم بترك القتال، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادله الهدايا. وأرسل مع البريد هدية من المملكة إلى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوي فيما احتوته عقدًا فاخرًا يقوم بأضعاف أضعاف هدية الطيب التي أرسلتها إليها أم كلثوم، فباع عمر العقد وأودعه بيت المال، وكتب إلى معاوية يحذره من القتال، وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمي إذا هو أقدم عليه بغير إذنه.

أمَّا قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذي لم ينسه عمر، ولم يزل عالقًا بذهنه، يعاوده كلما عاودوه بذكر البحر وغزواته، وخلاصتها أن العلاء الحضرمي والي البحرين كانت بينه وبين سعد ابن أبي وقاص منافسة في الجهاد، فبرز اسم العلاء في حروب الردة، ثم غلبه سعد فضلاً وهمة في وقعة القادسية، "وأزاح الأكاسرة عن الدار، وأخذ حدود ما يلي السواد".. قال ابن الأثير: "فأراد العلاء أن يصنع في الفرس شيئًا.. وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر، فعبرت الجنود من

البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى إصطخر وبإزائهم أهل فارس، وعليهم الهربذ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم، واقتتلوا قتالاً شديدًا بمكان يدعى طاوس. وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا..".

قال ابن الأثير الذي نلخص منه قصة هذه الغزوة: "لما بلغ عمر صنيع العلاء أريل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنقاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا.. وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأمير سعد عليه، فشخص العلاء إلى سعد بمن معه" ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم، وما كان ليطيعه لولا إيمانه وتقواه، وأنه استحقه بمخالفته من لا ينجو من عقابه مخالف كائنًا من كان.

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر، وأوشكت مصائبها جميعًا أن تعزى إلى البحر وإلى كل ماء من بحار فارس والروم، ثم عادت المسألة-أو المشكلة-إلى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله: لا يحملن أحدًا من المسلمين على ركوب البحر، أو على ركوب الغرر في قتال.

ونظرة عثمان في هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء، ومن أدل الأمور على إقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالإقدام.

إن المشكلة هنا قد تغيرت ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمي غير شبه قليل.

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لا محيد عنها، بعد إذ كان مجازفة لا حاجة إليها.

فقد أصبحت قبرس ورودس وجزر الشاطئ القريب ملتقى تتربص فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطرًا على الشام وفلسطين ومصر والقيروان، لا يؤمن على غرة ولا على استعداد وأهبة، ثم كان ما كان من اختبار المسلمين ركوب البحار اضطرارًا، وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها، فذللوا المركب العصيّ الذي طالما تجنبوه، وتغيرت المشكلة، ولم يبق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل.

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم، لم تزل شبهة التغرير بالناس قائمة لا تدفع إذا خيف الضرر، ووقع الخطر، وقيل أن ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر، وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه.

وعسير أن يمنع عزو البحر، وعسير مثله أن يباح، فخرج عثمان من العسرين خير مخرج، وكتب إلى معاوية يأذن له ويشترط عليه "ألا ينتخب الناس ولا يقترع بينهم، وأن يخيرهم، فمن اختار الغزو طائعًا حمله وأعانه".

وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسي قائد الأسطول خمسين غزاة "بن شاتيه وصائفة، في البر والبحر، لم يغرق أحد ولم ينكب..".

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تحميهم الغرة، وتبيحهم أن ينزلوا بها، ليمنعوا نزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها، ورتبوا الحملة عليها من مصر والشام، تأمينًا للطريق من شرقها وغربها وجنوبها، فأمنوا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسالمين.

ولو أنهم تركوا البحر وشأنه، لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها.

وكانت هذه الهمة من عثمان في علاج الأخطار الخارجية حلا نافعًا في شئون الدولة الداخلية إلى حين، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنًا عن شواغل السلم والدعة التي تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم. ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلف عدد المجاهدين فيها، ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها.

وبدأ ذلك في عهد عمر كما تبدأ مشكلات الميادين التي لا تستقر على قرار، بين الكر والفر، والإقامة والترحال، وتعاقب الأمراء في المدن والقادة في ميادين القتال.

فما حدث في عهد عمر من ذلك، أن أهل البصرة شكوا عجز خراجهم على كثرتهم، وأن أناسًا يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام الفتح، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة "وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون أصبهان، أيام أمدّ به عمر بن الخطاب أهل الكوفة، فقال لهم أهل الكوفة: أتيتمونا مددًا وقد افتتحنا البلاد، فأنشبناكم في المغانم، والذمة ذمتنا، والأرض أرضنا قال عمر: صدقوا. فقال أهل الأيام والقادسية ممن سكن البصرة: فلتعطونا نصيبنا مما نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحواشيهم. فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة، أخذها من شهد الأيام والقادسية".

وقد عزل عمر والي الكوفة عمار بن ياسر، واستعمل عليها أبا موسى، وكان أهل الكوفة يشكون عمارًا ويقولون لعمر أنه لا يدري علام استعملته، فسألهم: ومن تريدون؟ قالوا: نريد أبا موسى، فولاه عليهم. فأقام عليهم سنة، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه إلى البصرة.

ولبث عمر مهمومًا مغمومًا بأمر هذه الشكايات، حتى اضطجع يومًا بجانب المسجد وهو يفكر فيها، واستيقظ وهو مكروب بادي الأسى، فقال له المغيرة بن شعبة: ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم. فقال: وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟ وأتاه أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه: ما شأنك؟ فقال: إن أهل الكوفة قد عضلوني واستشارهم فيمن يوليه، فأشاروا عليه بتولية المغيرة، فولاه، وأقام واليًا عليها أكثر

من سنتين إلى مقتل عمر، وكان من رأي المغيرة الذي استمع إليه عمر أن الوالي القوي المسدد أصلح من الضعيف التقي "أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين، وأما القويّ المسدد فإن سداده وقوته لك وللمسلمين".

ولم ينحسم هذا الخلاف في عهد عمر ولا في عهد عثمان ولا في عهد على إلى أيام الدولة الأموية، فكان معاوية يأخذ لجند قنسرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب، وهكذا كان يحدث في الميادين عامة، بين من ظفروا فيها ثم تحولوا عنها إلى غيرها، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحها، ولا ظلم ولا غبن في التقسيم والتقدير، وإنما هي من جرائر السعة واشتباك فتوحها، والولايات وكثرة الأمداد التي تنتقل من إلى ميدان ومن ولاية إلى ولاية. ولنا أن نقول إنها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة إلى نظام الملك، والدولة التي تواجهها كلَّ يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة بقضايا الجهاد، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام، ولا ينفصل فيها نظام المعيشة ونظام الجهاد كل الانفصال.

وليس بالنادر بين هذه القلاقل أن يخف الجيش لنجدة آخر، فلا يصل إلى المكان المحصور أو المهدد إلا بعد الاستغناء عن نجدته، وليس بالنادر أن تتنافس الجيوش بالقيادة والسمعة والسابقة فينفس بعضها على بعض أن ينحاز لقيادته وأن يكون أميره تابعًا لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك.

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان أن حبيب بن مسلمة، الذي سبقت الإشارة إليه، كتب إلى عثمان يسأله المدد، فكتب إلى معاوية في الشام يأمره أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قومًا ممن يرغب في الجهاد، وكتب إلى سعيد بن العاص في الكوفة يأمره بأن يمد حبيبا بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي، فسار سلمان في ستة آلاف من أهل الكوفة، ولم يصل إلى حبيب إلا بعد فراغ حبيب من حملته الظاهرة على الموريان.

ولقد كان كلاهما-حبيب وسلمان-من أشجع القواد وأخبرهم بفنون القتال، وكان كل منهما "غزاء" معروف السابقة في ساحات الجزيرة والشام، فلما أراد سلمان أن يلي إمارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك، ودخل جند القائدين في المنافسة، وقال أهل الشام: لنضربن سلمان إن أبى إلا الرئاسة علينا. فأجابهم أوس بن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه:

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وإن ترحلوا نحو ابن عفان فارحلوا
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا وهذا أمير في الكتائب مقبلُ
ونحن ولاة الثغر كنَّا حماته ليالي نرمي كل ثغر وننكلُ

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملاً حاضرًا بين أيديهما، فافترقا على أن يوغل حبيب في غرب أرمينية وأن يوغل سلمان في شرقها، وأن يتلاقيا إلى الشمال بعد فتح المواقع بينهما، فدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر، وصرفا بأسهما إلى العدو ضنًا بقوة الجيشين أن تتفرق في المنافسة على الإدارة والسمعة،

ولكنها منافسة كانت تحتدم في أيام السلم وبين سكان المدن، فلا تنتهي بغير خصومة ولا تنتهي الخصومة فيها بغير شر وعناد.

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان إلى قصة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص الذين تعاقبا على ولاية الكوفة في عهد عثمان وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذي نجم من هذه القصة على إمامة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار.

كان الوليد بن عقبة والي الكوفة قد اتهم بشرب الخمر، فعزله عثمان، وأمر بإشخاصه إليه، وأسند الولاية بعده إلى سعيد بن العاص، فغضب نفر من بني أمية على سعيد، لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه، وعدوا ذلك تشهيرًا بالوالي المعزول، وتربصوا به الدوائر يكيدون له بين رعيته، ويغرون به من يلغط في مجلسه.

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين كالطبري وابن الأثير وغيرهما، زبدة هذه القصة التي كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة إلى مقتل عثمان.

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة أن سعيدًا اختار وجوه الناس أهل القادسية وقراء أهل الكوفة، فكان هؤلاء دخلته داخلاً، وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه.

وسأل عن أهل الكوفة فاطلعوه على حالهم، فكتب إلى عثمان بما انتهى إليه كما أمره، وقال له فيما قال: "إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم، والغالب على تلك البلاد روادف

ردفت، وأعرابٌ لحقت، حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها".

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد، وليكن من نزلها بسببهم تبعًا لهم، إلا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء، وليحفظ لكل منزلته ويعطيهم جميعًا بقسطهم على سنة العدل والمعرفة بأقدار الناس.

وأرسل سعيد إلى وجوه القوم فقال لهم: "أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينبئ عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره، فانقطع الذين لا سابقة لهم ولا قدمة بعضهم إلى بعض، وجعلوا يقعون فيه وفي عثمان، وكلما لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو مولى طليق أعجبه كلامهم، حتى غلب الشر وفشت القالة، فكتب سعيد بذلك كله إلى عثمان على ما تعوده الولاة من إبلاغ كل كبيرة أو صغيرة إلى الخليفة منذ أيام الصديق، فنادى منادي الخليفة إلى صلاة جامعة، وخطبهم، وتلا عليهم ما جاءه من سعيد، وذكر لهم أنه يريد أن يبعث إلى العراق بمن شاء النقلة إليه من أهل السابقة، ويأذن له في أن يبيع ما يملك بالحجاز، عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والأتباع.

على أن سعيدًا لم ينقطع عن لقاء العامة إذا جلس للناس، فحدث في بعض هذه المجالس أن فتى غرًا أثنى على طلحة بن عبيد الله فقال: ما

أجود طلحة! قال سعيد: إن من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادًا، والله لو أن لي مثلها لأعاشكم الله بها عيشًا رغدًا، فقال عبد الرحمن بن قيس، وهو فتى حدث: والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات، فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به: أتتمنى له سوادنا! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتى، وسمع قومه من بني أسد بما أصابه فجاؤوا وأحاطوا بالقصر، وعادت القبائل بسعيد فأقسم لا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين، "فقعد أولئك النفر في بيوتهم، وأقبلوا يقعون في عثمان".

ونما خبر هذا الشغب إلى عثمان، فأذن لسعيد في إخراجهم إلى الشام، وكتب إلى معاوية: "إن نفرًا قد خلقوا للفتنة، فأقم عليهم وانههم، فإن آنست منهم رشدًا فاقبلهم، وإن أعيوك فارددهم علي".

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم، وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق، وكان يتغذى ويتعشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاتهم عسى أن يقنعهم، فقال لهم في بعض هذه الأحاديث: بلغني أنكم نقمتم قريشًا، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة. إن أئمتكم لكم جنة فلا تفرقوا عن جنتكم، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة. والله لتنتهن أو ليبتليكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

قال رجل منهم-وهو صعصعة-أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلصت إلينا.

قال معاوية: عرفتكم الآن، وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول. ثم قال لصعصعة: أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا، أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرني والجاهلية؟

وطالت اللجاجة بينه وبينهم، فاجمع رأيه على إخراجهم بعد الكتابة إلى الخليفة، وكتب إليه يصفهم ويقول عنهم:

"قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدلُ، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون أحدًا إلا مع غيرهم، فإنه سعيدًا ومن عنده عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير".

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا إلى الجزيرة ولم يعودوا إلى الكوفة اتقاء الشماتة بهم، وسمع بهم والي حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرًا متوعدًا وقال لهم:

"يا آلة الشيطان. لا مرحبًا بكم ولا أهلاً، خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم، يا معشر من لا أدري أعربٌ هم أم عجم، لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية أنا ابن خالد أنا ابن من قد عجمته العاجمات أنا ابن فاقئ الردة والله يا صعصعة لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى".

ثم أقامهم شهرًا كلما ركب مشاهم معه، وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم، وسرح أحدهم-وهو الأشتر-إلى عثمان-فخيره عثمان أن يحل حيث شاء، فاختار العودة إلى ولاية عبد الرحمن.

وجرى في البصرة ما كان يجري في الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف، وكان في بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم بن جبلة العبدي، يصاحب الجيش ثم يخنس عنه ويغير على أهل الذمة، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين إلى عثمان، فكتب إلى ابن عامر والي البصرة أن يحبسه ومن كان مثله، فلا يخرجنّ من البصرة "حتى تأنسوا منهم رشدًا". فحبسه وتعقب خبره فحاءه النبأ ذات يوم أن رجلاً يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن في عثمان وخلافته، فدعا بابن السوداء هذا فإذا هو عبد الله بن سبأ، يهودي من أهل اليمن يقول برجعة النبي إلى الدنيا، ويظهر التشيع لعلي. فسأله ابن عامر: من أنت؟ قال: رجل من أهل الكتاب رغبت في الإسلام وفي جوازك. ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه بالمفسدين فيها، فذهب إلى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأخرج منها، وذهب إلى مصر فجعل يكاتب من تركهم في البصرة والكوفة، وأوى بمصر إلى حمران أبن أبان وهو رجل موتور من عثمان، كان قد تزوج امرأة في عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره إلى البصرة، فسعى هناك في وقيعة بين الوالي ورجل من النساك، وافتضح كذبه عليه فأخرج من البصرة، وذهب يتردد بين الشام والحجاز ومصر، فلقيه فيها ابن السوداء، وأوى إليه وأدخله معه في مكاتباته وسعاياته، وكثرت السعاية

بين أهل الأمصار من الروادف وأشباههم، فمن نزل منهم بالشام أرضاه معاوية أو أخرجه، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع في مكان لا رقابة عليهم فيه.

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمر ابن حريث فإذا بجموع المتكاتبين تلتقي فيها، وإذا بأناس منهم يشيعون في الناس أن سعيدًا عائد إليهم، وأنه ذهب إلى الخليفة يريده على نقصان رزق نسائهم إلى مائة درهم، وردّ أولي البلاء من المجاهدين إلى ألفي درهم، ويزعم أن الفيء من العراق بستان قريش، وأنها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع. وطفق دعاة منهم يذيعون هذه القالة أيام الجمع والناس مجتمعون في المسجد فيستخفون ألبابهم، ولا يستمعون لذي رأي يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم، وتصدى عمرو بن حريث- خليفة سعيد على الكوفة في غيابه-لتنفيذ ما زعموا، فقام على المنبر في يوم جمعة ينصح لهم، ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع.

قال القعقاع بن عمر: "أترد السيل على أدراجه؟ هيهات! والله لا يسكن الغوغاء إلا المشرفية، ويوشك أن تنتضى ويعجون عجيج العيدان، ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدًا فاصبر" قال عمرو: "أصبر". وتحول إلى منزلة لا يأمر ولا ينهى.

لقد كان خطب الغاشية هينًا لو أخذنا الآخذون بسلطان الإمارة أو بسلطان الولاية، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة في عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد مملكة، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولما يتوطد فيه حق الملك. وهذه هي النكبة الكبرى في صميمها.

وفي أمثلة الشواجر التي أشرنا إليها في عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال للتفرقة بين طريقة الخلافة وطريقة الملك والإمارة في سياسة هذه الشئون، أو في سياسة جميع الشئون.

كان عمر أقوى من عثمان ولا مراء في ذلك، وتقدم أنه بدل ثلاثة من الولاة على الكوفة غير والٍ رابع كان يهم بإشخاصه إليها قبل مقتله. وشوهد مهمومًا مكروبًا على قدرته التي تضيق بأزمة من أزمات السلم والحرب، واضطلاعه بأعظم الأعباء التي عرضت له أيام خلافته: مائة ألف لا يرضون عن والٍ ولا يرضى عنهم والٍ، وهذه معضلة ثقلت عليه حتى أحس ثقلها كل من كان يعرفه ويلقاه في إبان شكاياتها ومنازعاتها.

فما بال أزمة كهذه تثقل على الرجل الذي نهض بأفدح الأعباء وصغرت في عينيه مخاوف الدنيا ومطامعها؟

أتراه خاف من ثورة أصحاب الشكاية؟

لو كان هذا ما يخشاه لما اعضله ولا أعياه أن يعد له عدته ويفرغ منه على النحو الذي يريده.

أم تراه خاف على سلطانه، أو خاف على حياته، أو خاف على مصلحة من المصالح الكبرى أو الصغرى تعنيه غير مصلحة الإسلام والمسلمين؟

كلا فما في شيء من ذلك ما يخفيه، وإنما أعضله من أمر تلك الشكاية مخافة أمر واحد: مخافة الظلم أن يقع منه على شاك له حق في شكاة.

ذلك كل ما أعضل على عمر من شكايات أهل الكوفة، ولو لم يكن حساب نفسه على الظلم أعضل من كل معضلة لما كان في شكايات القوم ما يكربه ويقلق نومه ويغيم على وجهه، حتى يلمحه من ينظر إليه من عارفيه.

ولو أن عمر كان على يقين من افتراء الشاكين لما أهمه أن يسخطهم ويخسر ثناءهم، ولا أعياه أن يؤدبهم ويردهم إلى طاعة وليهم، فإنما الشكاة بالحق هي التي تزعجه وتكربه ويشغله منها أني يبرأ من مظنتها غاية جهده. فإن عرف وجه الحق فما يبالي بعده من شكا أو ادعى ولو زعم أنه يدعي باسم من شاء من الأكثرين أو الأقلين، وعلى هذا جرت سياسته وسياسة أبي بكر، وعلى هذا كان يقضي بين أبي بكر والشاكين منه حيثما سمعت الشكاية من الخليفة الأول، وبخاصة في مسائل الأعطية والأرزاق.

كان رزق أبي بكر الصديق حين استخلف خمسين ومائتي دينار في السنة، وشاة في كل يوم يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله، فخرج إلى البقع يتجر، وجاء عمر فإذا هو بنسوة جلوس فسألهن" ما شأنكن؟ قال بعضهن: "نريد خليفة رسول الله يقضي بيننا" فانطلق يطلبه فوجده في السوق، فأخذ بيده وجذبه ليذهب به إلى حيث تنتظره النسوة. وقال أبو بكر: "لا حاجة بي إلى إمارتكم رزقتموني مالا يكفيني وعيالي" وسأله عمر عما يكفيه، فقدره بثلاثمائة دينار في السنة وشاة كل يوم لا يؤخذ منها شيء وجاء علي وهما على هذه الحالة فلم ير ضيرا في الزيادة، ووافقه عمر بعد مراجعة. قال أبو بكر:

"أنتما رجلان من المهاجرين، لا أدري بقية المهاجرين بما رضيتماه أم لا". ثم صعد المنبر واجتمع إليه الناس فقال:

"أيها الناس! إن رزقي كان خمسين ومائتي دينار وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها وإن عمر وعليًا كملا لي ثلاثمائة دينار والشاة، أفرضيتم؟"

فأجابه المهاجرون: "اللهم نعم نعم. قد رضينا". وصاح صائح من جانب المسجد فإذا هو أعرابي يقول: "لا والله ما رضينا. فأين حق أهل البادية؟"

ولم يكن عسيرًا على عمر ولا على أبي بكر أن يعلما أنها صيحة لا يصغى إليها، فمن التنطع أن يمنع رزق الخليفة الذي أقره ذوو الرأي من المجاهدين في انتظار سؤال البادية من حضرهم منها ومن لم يحضر. وكان جماع قولهم أن المهاجرين أذا ارتضوا شيئًا فإنما الغائبون من أهل البادية تبعٌ للحاضرين، ولا يشتكي من ذلك مشتك بالحق كائنًا ما كان ادعاؤه، وكائنًا من كان المدعون على غراره.

فلا حساب للخليفة إذا جاءته الشكاية غير حسابه لضميره، وخشيته أن يكون قد ظلم أحدًا أو قمع شاكيًا مظنة صدق في شكايته، وغير ذلك حساب الملك والإمارة، فإنهما بين خوف الفتنة وخوف الضرر على سلطان صاحب السلطان، ويأتي الإنصاف في المرتبة بعد النظام والمصلحة إن كان له حساب.

ولقد شكا من الزكاة أيام الخليفة الأول أكثر أهل الجزيرة العربية، واستدعى قتالهم جهدًا أكبر من جهد القتال مع الأكاسرة والقياصرة،

فما وقع اليقين في نفس الخليفة أنه على الحق وأن الشاكين على الباطل حتى أقدم على مكارة الحرب الداخلية. وأقدم معه سائر المهاجرين والأنصار. ولو تكرر هذا لتكرر علاجه بما يقتضيه في غير مبالاة بكثرة الشاكين وقلة المجاهدين.

obeikandl.com

الإمام أو مصحف عثمان

ينفرد اليوم بين أعمال عثمان عمل جليل يوازنها جميعًا، يذكر باسمه حيث يذكر المصحف الشريف، ويعلمه من يعلم أن المصحف "العثماني" منسوب إليه.

فقليل من الناس يعلمون اليوم أنباء الفتوح التي فتحها عثمان، وأنباء الغارات التي ردها عثمان، ومنها ما تلتبس فيه أسانيد المؤرخين، فيختلط السند الواحد بين البلد والبلد، وبين السنة والسنة، ولا يعرف القول الفصل في ذلك كله إلا بعد معارضة ومقابلة بين الأنباء والروايات لا يشتغل بها أحد غير المختصين.

أما عمل عثمان في المصحف فهو ماثل معلوم يقرأ المصحف وحيث يقال: هذا مصحف عثمان. وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان، فلم تكن كلمة "المصحف" نفسها معروفة علمًا على الكتاب الذي يجمع آي القرآن الكريم. فعرف المصحف تارة، و"الإمام" تارة منذ سميا باسميهما في أوائل خلافة عثمان.

وليس من مباحث هذا الكتاب تاريخ جمع القرآن منذ جمع لأول مرة في حياة النبي عليه السلام، وإنما نذكر منه ما يذكر في تاريخ عثمان رضوان الله عليه، وهو باتفاق الخالفين بعده ألزم ما كان لازمًا من أعمال العناية بالقرآن الكريم.

جمع القرآن الكريم في حياة النبي عليه السلام بعد أن كان مفرقًا في جريد النخل وصفائح الحجارة والعظام والجلود والرقاع، ولم يرتب

يومئذ على حسب السور والموضوعات، وفي ذلك يقول الشيخ محمد العاقب الشنقيطي من أرجوزته المشهور:

لم يجمع القرآن في مجلدِ ... على الصحيح في حياة أحمدِ
للأمن فيه من خلاف ينشأُ ... وخيفة النسخ بوحي يطرأُ
وكان يكتب على الأكتافِ ... وقطع الأدم واللخافِ

فلما كنت أيام أبي بكر قال عمر: إن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باليمامة يتهافتون تهافت الفراش، وإني أخشى ألا يشهدوا موطنًا إلا فعلوا ذلك وهم حفظة القرآن فهلا جمعته وكتبته؟ فنفر أبو بكر أني فعل ما لم يفعل رسول الله، ثم أرسل أبو بكر إلى كاتب الوحي زيد بن ثابت فقال له مشيرًا إلى عمر: "إن هذا قد دعاني إلى أمر فأبيت عليه، وأنت كاتب الوحي، فإن تكن معه اتبعتكما، وإن توافقني لا أفعل". وتراجعا في الأمر حتى قال عمر: "وما عليكما لو فعلتما ذلك؟" فنظرا مليًا ثم قالا: "لا شيء!".

فجمعت الآيات، وروجع الحفاظ في كل آية، ولم يشتغلوا يومئذ بنسخ ما جمعوه وإرسال النسخ إلى الأمصار، لأنهم تتبعوا الآيات لجمعها، لا لمخافة الاختلاف في قراءتها.

ثمَّ حدث هذا الاختلاف بعد تفرق المسلمين في الأمصار على أيام عثمان، وبلغ من ذلك أن المعلمين والصبية كانوا يقتتلون في المكاتب، لأن الصبية يرجعون إلى آبائهم فيسمعون منهم غير ما سمعوه من معلميهم، وعاد حذيفة بن اليمان من قتال أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى الخليفة فقال له: "أدرك الناس يا أمير المؤمنين قبل أن يختلفوا في

الكتاب". فلم يتوان عثمان بقية يومه، وأرسل إلى السيد حفصة يطلب النسخة التي أودعها أبوها عندها قبل وفاته وقبل أن ينتخب الخليفة من بعده، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها، ثم عارضها على ما يحفظه وهو يحفظ القرآن كله، وعارضها على ما يحفظه سائر الصحابة، فخلصت له النسخة المتفق على قراءتها وترتيب آياتها، فلم يحجم بعد ذلك عن أمر كان غيره خليقًا أن يهابه، مذ رأينا أن أبا بكر قد تردد قبل أن يجيب عمر إلى مشورته، وليس فيها أكثر من مجرد التفكير في جمع الآيات المتفرقات.

أمر بعد حصول هذه النسخة لديه فأباد كل ما عداها إحراقًا ومحوًا، وأخذ "العسب واللخاف والجلود" التي لم تختلف ولم تجتمع على ترتيب فدفنها بين القبر والمنبر، وأرسل من "المصحف" كما جمعه نسخًا إلى الأمصار يعتمدونها ولا يقرأون في غيرها.

عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه "عمل عثماني" في الإقدام عليه وفي أثره.

فهذه الجرأة أحق شيء أن يلتفت إليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثني صاحبها عن تبعته إذا آمن بها.

وهذا العمل -في اختلاف تقديره وأثره- مثال من أعمال عثمان كافة، إذ كان معدودًا عليه من أكبر السيئات، ولم تبق لعثمان حسنة أعظم منه في تاريخ الإسلام.